

الإمبراطور الفيلسوف

٣

في حياة الإمبراطور مرقس أورليوس مسألة شائكة لا يزال يدور حولها البحث ، ويختلف الرأي ، ويشتد الجدل ، وهي موقفه من الاضطهاد الذي أصاب المسيحيين في عصره ، وقد حاول بعض المؤرخين أن يشكوا في صلة الإمبراطور بحوادث الاضطهاد التي وقعت في مدينة ليون ، ولكن يظهر أنه من الثابت أن مرقس أورليوس قد أقرها - كما يقول ماثيو أرنولد وهو أحد المعجبين بالإمبراطور الفيلسوف - والواقع أن جانباً مما أصاب المسيحيين في عصر الأباطرة المصلحين من أمثال تراجان وأنطونينوس بيوس ومرقس أورليوس كان يرجع إلى تصورهم الخاص للمسيحية التي كانوا يحاولون إطفاء نورها وإخماد أنفاسها ، فقد كانوا يرونها من الناحية الفكرية والفلسفية شيئاً سخيفاً لا خير فيه ولا غناء ، وكانوا يعتقدون أنها من الوجهة الأخلاقية تغرى بالفساد وتبعث على الشر والإجرام ، أما من الناحية السياسية فكانوا يرونها هادمة للدولة مفككة لعرى المجتمع ، وكانت الفكرة الغالبة هي أن المسيحيين جمعية سرية تعمل في الخفاء لتحقيق أغراض مريبة ضارة ، وكانت جمهرة الشعب الروماني لا تشك في أن هؤلاء المسيحيين كفرة ملاحدة يستحلون الحرمات ، وينتهكون حرمة الآداب ، ولا يتورعون عن أكل لحوم البشر ، وكانت الديانة الرومانية من ناحية أخرى بغیضة إلى نفوس المسيحيين ، يمقتونها أشد المقت ، ولا يكتفون في معارضتها بالمقاومة السلبية الصامتة ولا يمتنعون عن تقديم القرابين فحسب ، بل يحرضون

غيرهم من الطوائف على أن يسلك مسلكهم ، ولا يقنعون بترك تماثيل الآلهة ، بل يعمدون إلى إسقاطها من فوق القوائم التي ترتكز عليها ، ولذا كان الرومانيون يمتنون المسيحيين ويسيطون بهم الظن ، وكانت الاجتماعات التي يعقدها المسيحيون مثاراً لأعاجيب الروايات ، وغرائب الظنون في الأوساط الرومانية . وكانت كراهة الشعب الروماني للمسيحيين من القوة والتأصل بحيث كان يجد الحكام والأمراء صعوبة كبيرة في كبح جماحها ، وصد تيارها الجارف ، وكان من السهل أن تنتقل هذه الآراء والمعتقدات من العامة إلى الخاصة .

وقد يعجب الإنسان كيف أن تعاليم سامية كتعاليم السيد المسيح تستهدف مثل هذا التصوير الخاطئ والعرض المشوه ، ولكن السبب الحقيقي هو أن المسيحية كانت روحاً جديدة في العالم الروماني ، وكان مقدراً أن هذه الروح الجديدة ستزلزل قواعد وتخلل كيانه ، وكانت هذه الروح الجديدة تشبه الروح الديمقراطية في العالم الحديث ، ومثل كل روح حديثة ينفر منها الناس في مستهل أمرها نفوراً غريزياً لأنها تليح لهم بعالم جديد مجهول ، ولا عجب أن تلقى الروح الجديدة شدة ومقاومة من العالم الذي يشعر شعوراً غامضاً خفياً بأنها ستقلبه رأساً على عقب ، وتقوم على أنقاضه . وكانت الدولة الرومانية شديدة الحرص على توطيد نفوذها ، وتقرير سلطتها ، فهي لا تسمح بأن تقوم في داخل حدودها وبين بصرها وسمعها جماعة تتحداها ، وتخلع طاعتها ، وتخرج عليها .

وكان الإمبراطور مرقس أورليوس بحكم مركزه حامى التقاليد الرومانية ، والقيم على الدولة وشؤونها ، ولم يكن في وسعه بحكم نشأته وثقافته وتقاليد قومه أن يرى المسيحية على حقيقتها ، ويقدر ما في آدابها من سمو وتسامح وإنسانية ، وكان حتماً عليه أن يراها شيئاً مناقضاً للنظام ، هادماً للمجتمع ، فواجب الدولة مقاومته ، وكسر شوكته ، والقضاء عليه ، وهو بحكم مركزه أول من

يفرض عليه الإشراف على ذلك رعاية للأمانة وصيانة للدولة . ولكننا نرى برغم ذلك كله أن هذا الحكيم الفيلسوف العظيم القلب واللب قد أساء بعض الإساءة عن غير قصد إلى المسيحية ، وقد تغتفر هذه الإساءة لغيره ، ولكنه كان رجلاً الكمال بغيته والحق طلبته ، فهو لا يقاس على غيره ، ويطلب منه أكثر مما يطلب من سواه ، وقد يكون برئ الساحة واضح العذر ، ولكنه مع ذلك كله سيئ الحظ في هذه المسألة .

وليست هي أول مسألة لازمه فيها سوء الحظ ، وتنكر له القدر ، فقد أساء إليه الحظ إساءة أخرى شابت صفو حياته ، واستفدت مقداراً غير يسير من حلمه الرزين ، وصبره الطويل ، وتجلده المنقطع النظير ، فقد كانت فاوستينا زوجة الإمبراطور الصالح لا تفهمه ولا تقدره ولا تحبوه بعطفها ، ولا تبادله الحب ، وكانت في بادئ الأمر تضمهر له بعض الحب ، ولكن سرعان ما ملت حكمته ، وساءت بها جهامة ورعه ، وذلك الحزن الصامت الوديع الذي كان يغلب عليه ، وكانت فاوستينا امرأة رفاقة الجمال ، بارعة الحسن ، فاتنة جذابة ، كثيرة البدوات ، حادة الطباع ، وقد كثرت حول سمعتها الشائعات وتناثرت الأخبار السيئة ، ويقول رينان عنها^(١) ، إن البحث التاريخي الدقيق أظهر بطلان الكثير من التهم التي قذفت بها ، ولكنه مع ذلك يرى أن البقية القليلة من التهم التي لم يستطع التحقيق التاريخي تفنيدها من الخطورة بمكان ، وهي لم تقبل أن تشارك زوجها في ميوله ونزعاته ، وكانت تمتق أصدقاءه وصحابته ، وكان ذوقها يخالف ذوقه وإتجاهها يناقض إتجاهه .

ويرى رينان أن الإمبراطور كان يعرف ذلك ، ويشقى به ، ويحتمله صابراً

(١) راجع صفحة ٢٣٢ من كتاب رينان عن مرقس أورليوس (الترجمة الإنجليزية - طبعة

ولترسكوت).

محتسباً ، ولم تحذله هنا تلك النظرية العجيبة التي كان يحرص عليها ، وهي أن يفرض على نفسه أن يرى الأشياء كما يجب أن تكون لا كما هي عليه في الواقع ، وسد أذنيه عن سماع أخبار السوء ، ولم يتحول عن خطته ، وظلت فاوستينا «زوجته الصالحة الوفية العفة النقية» ولم ينبذ هذه الأسطورة حتى بعد موتها ، وقد استطاع في أعوامه الأخيرة أن ينسى كل شيء ، ويغالط نفسه في كل الأمور ويخدعها ، ولكنه لم يرتفع إلى هذه القمة إلا بعد معارك حامية ، وصراع داخلي رهيب ، وكان جوهر فلسفته الخضوع والإستسلام ونبذ كل شيء ، وكان لزاماً عليه أن يحمل نفسه على توديع السعادة الدنيوية ، والمآرب الأرضية ، ليصل إلى هذه الحالة ، وربما لم يكن في مقدور البشر أن يقدرُوا مدى الآلام التي عاناها مثل هذا الرجل لبلوغ هذه الحالة النفسية العجيبة النادرة !

ورينان يقول في هذا الصدد^(١) «حقيقة أن توديع السعادة هو بدء الحكمة وأكد طريق للظفر بالسعادة» ويردف ذلك بقوله «لا شيء أعذب من السرور الذي يعقب تنازلنا عن السرور» فهل الأمر كذلك ؟ هذه مرتفعات قد لا تقوى على السير في دروبها ، وربما كان إخواننا أصحاب الأمزجة الصوفية أقدر منا على فهمها !

وقد أحسن الدفاع عن فاوستينا الأستاذ الحجة فاركهارسون في كتابه القيم عن «حياة مرقس أورليوس وعالمه» - وهو من خير الدراسات التي كتبت عن حياة الإمبراطور الفيلسوف - فقال^(٢) «لقد صار اسم فاوستينا مضغعة في الأفواه ، وأصبح مضرب المثل في الضعف النسائي ، وجمعت الأقاويل التي ترددت حولها طائفة من الأوهام والفروض التي غدت في دورها جزءاً من

(١) راجع صفحة ٢٣٣ من كتاب رينان عن مرقس أورليوس (الترجمة الإنجليزية).

(٢) راجع صفحة ٨٢ من كتاب فاركهارسون عن حياة مرقس أورليوس وعالمه .

القصة كما يحدث عادة في مثل هذه الأحوال ، ومن المتعذر الفصل في الموضوع لنقص الأدلة ، ويكفي أن نقول إن الباحث التزبه لا يتردد في تبرئة الإمبراطورة الشابة بناء على الدليل الباقي ، ويبدو أن هذه الإشاعة السيئة مجرد حقد مثل القدر الذي رميت به ماري أنطوانيت ، وهو ضريبة الجبال التي يدفعها في الأماكن السامية ، ويرى فاركهارسون أن كثيراً من الأخبار السيئة التي لوئت سمعة فاوستينا أذيعت بعد مضي مائتي سنة على وفاتها ، ويستخلص من ذلك أنها ظاهرة البطلان واضحة التلفيق ، وقد مال إلى تبرئتها كذلك المؤرخ هايوارد في كتابه عن مرقس أورليوس ، ويرينا ذلك ان التهم التي قذفت بها فاوستينا ليست من الأمور المقطوع بصحتها ، والتي يميل البحث التاريخي الحديث إلى التشكيك فيها وتفنيدها .

وقد أشرت إلى نكبة الإمبراطور بابنه كومودس ذلك الفظ الغليظ القلب المتكس الطبيعة ، المجبول على الأذى والشر ، وقد ألمع الإمبراطور إلى بعض ماعاناه منه في قوله ^(١) « ما الذي يستطيع أن يفعله شر الناس من الأعمال السيئة إذا ظلمت مصرأ على العطف عليه والإحسان إليه ؟ وإذا ترفقت في لومه حينما تلوح الفرصة وألقيت عليه في اللحظة التي يحاول فيها الإساءة إليك أمثال هذه الدروس في غير غضب » اعرض عن ذلك يا ولدي فقد ولدنا لغايات أخرى ، إنك لا تسيء إلى وإنما تسيء إلى نفسك » وأبصره بلباقة المبادئ العامة التي تقضى بأن تكون هذه هي القاعدة ، وأنه لا التحل يعمل عمله ولا الحيوانات التي تعيش في القطيع ، ولا أنتقصه ولا أهينه وأسخره بل أقول كل ما أقوله له بلهجة الومق العاطف كأنه صادر عن قلب لم تؤثر فيه مرارة الغضب ،

(١) راجع صفحة ١٨٩ / ١٩٠ من كتاب التأملات (طبعة سكوت) وصفحة ٢٣٤ من كتاب رينان عن مرقس أورليوس الترجمة الإنجليزية (طبعة سكوت) .

ولا أحدثه كأتى معلم المدرسة أو لأكسب إعجاب الحاضرين ، وإنما أستعمل نفس الصراحة التي أتحدث بها إليه حينما نكون منفردين معاً .

ولكن هذا العطف الأبوي والترفق الفلسفي والنصح البليغ لم يصلح لسوء الحظ من شأن تجله المنكود كمودس ، وكانت تنتظر هذا الرجل الرصين الوديع في سنواته الأخيرة أيام أخرى ، وتجارب جديدة مرة قاسية ، فقد تخطف الموت أصدقاء طفولته وأخذان شبابه ، وأصبح هؤلاء السادة الغطارف الذين جمعهم حوله أنطونينوس ونعم بصحبته مرقس أورليوس طى الأرماس ، وأحس أنه في جيل لا يهمه ، وأخذ يطيل التفكير في الموت . من ذلك قوله في تأملاته (١) « لا تلعن الموت بل رحب به لأنه في عداد تلك المظاهر التي تريدها الطبيعة ، وإحلال كياننا شيء طبيعي مثل الشباب والشيخوخة والنمو والنضج التام . . . وإذا كنت في حاجة إلى تفكير خاص ليصلح ما بينك وبين الموت فما عليك إلا أن تفكر فيمن سيطوى الموت ما بينك وبينهم ، ولا تفكر في مغاضبتهم والحمة عليهم ، وإنما خذ نفسك بحبهم واحتمالهم في رفق ولين ، ولكن برغم ذلك تذكر أنك لا تفارق قوماً يشعرون بمثل شعورك ويفكرون تفكيرك ، والشيء الوحيد الذي يستطيع أن يجعلنا نتمسك بالحياة ويقيدنا بها هو تلك الصحبة المباركة ، صحبة من هم على شاكلتنا وأشباهنا ، ولكن لما كانت الأمور كما ترى فانظر الغصص الدخيلة التي تعانيتها حتى لتنبعث منك هذه الصيحة «أيها الموت لا ترجي قدمك خشية أن أنسى نفسي» .

وأخذ يعنى في تحليل الحياة وتشرح أجزائها حتى أصبح الفرق يسيراً بينها وبين الموت ، ووصل عن هذا الطريق إلى التسامح الشامل وعدم الإكتراث الذى كان يلطف من حدته الإشفاق والإحتقار ، وكان الهدف الذى يرمى إليه

(١) صفحة ١٤٥ / ١٤٦ من كتاب التأملات وصفحة ٢٣٨ من كتاب رينان عن مرقس أورليوس

هو « أن يعيش زاهداً مستلماً بين الرجال المزيفين الظالمين » والطيبة الصادقة الوطيدة هي التي تقوم على الزهد في كل شيء والملل منه والتبريم به ، والإحساس بأن كل ما في هذه الدنيا تافه حقير سطحي زائل ، وإذا بدت الدنيا للإنسان أطلالاً دارسة ورسوماً عافية فماذا يبقى ؟ الشر والحقد والضعينة ؟ كلا فإن الأمر أهون من أن يستحق هذا العناء ، ومباشرة الشر تستلزم إيماناً خاصاً بجديّة الحياة والتصديق على الأقل بما فيها من متعة ولذة ، والإيمان بالانتقام ، والإيمان بالطموح ، ولكن الرجل الذي زالت عن بصره غشاوة الأوهام ، وعرف أن كل رغبة تنطوى على حقاقة لا يكلف نفسه مثل هذا العناء ، ولقد وصل مرقس أورليوس إلى ما يشبه النزفانة عند البوذيين ، فتخلص من ريق الأهواء والشهوات ، وسما على الأغراض والأهداف ، وانتصر انتصاراً نهائياً على الموت ، واستطاع أن يتسمم إليه ويتلقاه في غير خشية ، بل في قبول تام وترحيب صادق .

وفي العاشر من شهر مارس للسنة الميلادية ١٨٠ مرض الإمبراطور مرضه الأخير ، واستعد للقاء الموت الذي كان يظليه ويدعوه ، وأمسك عن الطعام والشراب ، واستدعى ابنه كومودس ، ورجاه أن يتابع الحرب القائمة حتى يصل بها إلى النهاية .

وفي اليوم السادس من مرضه استدعى أصدقاءه وخاطبهم بلهجته المألوفة وسخرته الخفيفة المهذبة ، وتحدث إليهم عن غرور الحياة وباطلها وعدم الإكتراث بالموت ، فتفجرت عيونهم بالدموع ، وسالت عبراتهم فقال لهم « لماذا تبكون من أجل ؟ لا تفكروا في غير إنقاذ الجيش ، وكل ما في الأمر هو أنني أسبقكم . . . فالوداع » .

وسئل « من يوصي بابنه ؟ » فأجاب « أوصيكم به إذا وجدتموه جديراً بذلك

وأوصى الآلهة الخالدين .

وحزن الجيش حزناً شديداً لأنه كان يجب الإمبراطور الفيلسوف ويعبده عبادة ، وكان الجيش يعرف المنحدر الذي ستسقط فيه الإمبراطورية بعد موته وكان لا يزال به بقية من القوة تكفي لأن يقوم بتقديم نجمة للجيش ، وقد مكنته قدرته على الاحتفاظ بهدوئه والسيطرة على نفسه برغم الآلام التي يعانيها من أن يظل جلدًا رزينا حتى في تلك اللحظة القاسية .

وفي اليوم السابع شعر بقرب الخاتمة ، وكان لا يرى غير نخله ، وأبعده بعد دقائق قليلة خشية أن تصيبه عدوى المرض الذي أصابه ، وربما كان ذلك مجرد عذر ليريح نفسه من محضره البغيض ، ثم غطى رأسه كأنه يحاول النوم ، وفي الليلة القادمة أسلم الروح ، ونقلت جسده إلى روما ، ودفن في مقبرة الإمبراطور هادريان ، وكان كل فرد من أفراد الشعب يشعر بأنه قد فقد أباً يشجيه فقداه أو أخاً يؤله رحيله أو إبناً يشق عليه موته ، وفي يوم الإحتفال بدفنه لم يكذب بسنخ عليه دمع فقد كان جميع الناس يعتقدون أن مثله لا يموت ، وأنه قد انتقل من الحياة الأرضية الفانية وعاد إلى الآلهة التي أعارته الأرض حيناً من الزمن ! وكان الذي تمكنه أحواله من إقتناء تمثال للإمبراطور في منزله ولا يفعل ذلك يذم ويلام ، وكان جميلاً من الناس ومشرفاً للإنسانية هذا الوفاء التزير والتقدير الصادق البريء لهذا الرجل الراحل العظيم ! ويقول رينان في كتابه عنه تعليقاً على ذلك ^(١) «لم تكن هناك عبادة أكثر شرعية من ذلك ، وهي لا تزال عبادتنا إلى اليوم ، وكل منا يحمل في نفسه الحزن على مرقس أورليوس كأنه قد مات بالأمس ، فبه قد جلست الفلسفة على العرش ، وبفضله حكم الدنيا حيناً من الزمن أحسن رجال عصره وأعظمهم ، وكان من الخير حدوث هذه التجربة ،

(١) صفحة ٢٤٢ من كتاب رينان عن مرقس أورليوس .

فهل تحدث هذه التجربة مرة أخرى؟ وهل تبلغ الفلسفة الحديثة في دورها مرتبة الجلوس على العرش كما بلغت الفلسفة القديمة؟ وهل يكون لها مرقس أورليوس الخاص بها يحفه رجال من أمثال فرونتو وجونياس راستيكاس؟ وهل تصير أمور البشر مرة ثانية إلى أيدي أعقلهم وأكثرهم حكمة؟» .

وقد ترك مرقس أورليوس للإنسانية كتاباً يعد من أسمى الكتب التي كتبها القدماء وأبقاها على الزمن ، وهو كتاب التأملات ، وليس هذا الكتاب مجرد مجموعة أفكار فلسفية أو خواطر أخلاقية صالحة للوعظ والتبشير والهداية والإرشاد ، وإنما هو قصة نفس كانت تنشذ الحقيقة وتعنى بمشكلات الحياة الكبيرة ، وتدبم التفكير في معنى الحياة والموت ، وهو مناجاة مستمعة من مأساة حياة رجل كبير القلب ، راجح العقل ، لا يريد أن يذبح عقيدة أخلاقية أو أن يقدم لك مذهباً فلسفياً ، ولكنه مع ذلك يستولى عليك ، ويلمس قلبك . وقد انتهى إلى فكرة أن على الإنسان أن يحمد رغباته إذا أراد أن يكون سيد نفسه ، وهي نفس النتيجة التي إنتهى إليها شوبنهاور والبوذيون ، وهي نوع من الانتحار الداخلي وكبت الرغبات والميول والأهواء .

والوصية التي يوصينا بها الرواقيون والبوذيون وشوبنهاور ومرقس أورليوس هي أن نعمل على أن نكون مثل الأحجار التي لا تحس شيئاً ، ولكن إذا كانت الأحجار لا تحس ولا تشعر وبذلك تتخلص من الألم ، فهي كذلك لا تستشعر الحب ولا تعرف الإيمان ، وقد كان قلب مرقس أورليوس حافلاً بالحب والعواطف الإنسانية الكريمة : عامراً بالإيمان بعدالة الكون وقداسته ، وواضح أن هنا نوعاً من أنواع التناقض ، ولكنه تناقض مقبول لأنه أنقذه من جفاف الشعور وجمود الحس ، وقساوة القلب التي استهدف لها الرواقيون ، فقد حاولوا إختاد العواطف نزولاً على حكم العقل ، وكان لزاماً عليهم أن يحمّدوا كذلك

الحب والعطف ، أما مرقس أورليوس فقد سلم بوجود حرية الإرادة ليستطيع الصفح عن الغير ، وكان يرى كذلك أن الخير والشر طبيعيان كإزدهار الورد في الربيع ، وهذا التناقض أفسد عليه مذهبه الفلسفي ولكنه أفاض على تفكيره من ناحية أخرى روحاً إنسانية جذابة .

ولم تنقذه من صرامة النسك وظلام اليأس طيبة القلب وحدها ، وإنما كذلك الإيمان بقوة العقل الإنساني ، فهو يقول لنفسه في تأملاته «إعمل على أن تتذكر على الدوام أنك رجل وأنك روماني ، وليكن ديدنك أن تؤدي أعمالك في رزاة غير متكلفة وبإنسانية وحرية وعدالة» .

ويقول كذلك «إن السلطة المقدسة ليست سوى الروح والعقل اللذين يملكهما كل إنسان» فإنه هو الضمير الإنساني ، وليس له إيمان محدد فيما يخص الآلهة سوى هذا الإيمان .

وهو لا يؤكد شيئاً ، ولأفكاره دائماً وجهان ، وجه يفترض وجود الله والروح ، ووجه آخر يفترض أنها غير موجودين ، فهو يقول مثلاً^(١) : «الدنيا إما أن تكون أخلاطاً من الذرات تجتمع حيناً وتفترق حيناً آخر ، وإما أن تكون وحدة متسقة خاضعة لقوانين النظام والعناية ، فإذا صح الرأي الأول فلماذا أطلب البقاء حيث الطبيعة في فوضى الأشياء تحبب خبط العشواء في اجتماعها وتفرقها ؟ ولماذا أعنى بأى شيء آخر غير عودتي إلى عنصر الأرض في أسرع وقت مستطاع ؟ ولماذا أجهش نفسي المتاعب وأسومها العذاب ؟ فلأعمل ما أريد فإن عناصرى ستبتدد وتفترق ، ولكن إذا كانت هناك عناية فإني سأكبر حاكم الدنيا العظيم وأطمئن إلى رعايته وألوذ بجماه» .

(١) كتاب التأملات صفحة ٢٧ الترجمة الإنجليزية طبعة سكوت .

ويقول في مناجاة أخرى^(١) « اعمل وتحدث وفكر كأنك معرض للموت في كل لحظة من لحظات حياتك ، وماذا في الموت مما يروع ويهول ؟ إذا كان هناك آلهة فإنك لن تعذب لأنها لا تمسك بسوء ، وإذا لم يكن هناك آلهة أو كانت لا تحفل بالمخلوقات الفانية أمثالنا فإن عالماً بغير آلهة ولا عناية إلهية لا يستحق أن يعاش به ، ولكن الواقع أن وجود الآلهة وإهتمامها بأمور البشر من المسائل التي لا خلاف فيها ، وقد منحت الإنسان القدرة على تجنب الكوارث الحقيقية . . . » .

ولم يستطع مرقس أورليوس أن يخرج من هذه الحيرة ، ويطمئن إلى حل نهائي لهذه المشكلة ، وهذا هو مصدر مأساة حياته الأخلاقية ، فكان هناك صراع دائم في نفسه بين اليقين وبواعث الشك ، وكان هذا اليقين الذي لا يفتأ يطارد الشك ويغالبه مصدر همه ونصبه وعذابه وآلامه ، وقد ظل كذلك إلى النهاية يشك ويؤمن ، ويحارب إيمانه الشكوك ، وقد مات وهو في غمرة الهيجاء ونقعها المثار ، ولكنه لم يهنم !

وقد كان في بعض الأحيان يسمو إلى القمم العالية حيث الصمت الذي لا تصل إليه ضجة الأرض وضوضاؤها ، والهدوء الذي لا تشوبه عواصف الأهواء والشهوات ، والحكيم الذي يظل متوقفاً في تلك الأعالي والمرتفعات لا مفر له من أن يقضى على إرادة الحياة في نفسه ، وإذا قضى الإنسان على إرادة الحياة في نفسه فقد قضى كذلك على إرادة الفضيلة وإرادة الخير ، وقد استطاع مرقس أورليوس أن يجمع أهواءه ، وبروض جراح نفسه ، ولكن نبع الحب والعطف ظل في نفسه عذباً فياضاً يذكرنا بتلك الأسطورة التي تروى عن ساكياموني البوذا ، وذلك أنه في خلال السنوات الطويلة التي قضاها في

(١) كتاب التأملات صفحة ٨٦ الترجمة الإنجليزية طبعة سكوت .

الصحراء جالساً بغير حراك كانت عيناه معقودتين بالسماء ، وكان دائم التفكير في الأبدية حتى قارب الوصول إلى الترفانة ، وتصلبت مفاصل ذراعيه الممدودتين وطارت فوقه خطاطيف ، فلما رآته ثابتاً لا يتحرك ظنته حجراً أو جذع شجرة ، فعششت في راحة يده ، وكانت تعود إليها في كل ربيع ، ولكنها في يوم من الأيام طارت لكي لا تعود مرة ثانية ، فلما عرف ذلك هذا الذي أحمده في نفسه كل رغباته ، وقع إرادة الحياة والذي أصبح لا يألم ولا يفكر ، واستمتع بهدوء الترفانة عز عليه فراق الخطاطيف فطفرت الدموع من عينيه .
وهكذا القلب البشري - كما يقول الكاتب الروسي الكبير مرزكوفسكى -
« لا يصل إلى الهدوء المطلق ، والحكمة الخالصة لأنه لا يستطيع أن يحرم على نفسه الحب » وربما كان هذا الضعف هو مصدر قوته وآية مجده وعظمته .